« التّحدّي بالقرآن ، وعقاب المكذّبين في الأولى والآخرة »
الآيات (٣٧ ــ ٤٥)

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾

وما كان هذا القرآن أن يُفْتَرَى من دون الله : وما ينبغي لهذا القرآن أن يتخرَّصه أحد من عند غير الله[١] أو يختلقه[٢] .

ولكن تصديق الذي بين يديه : ولكنّه من عند الله أنزله مصدِّقاً لما قبله من الكتب التي أنزلت على أنبياء الله كالتّوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه[٣] .

وتفصيل الكتاب : وتبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمّة محمّد ﷺ وفرائضه التي فرضها عليهم في السّابق من علمه[٤] .

لا ريب فيه من ربّ العالمين : لا شك فيه أنه تصديق الذي بين يديه من الكتاب وتفصيل الكتاب من عند ربّ العالمين لا افتراء من عند غيره ولا اختلاق[٥] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ هذا القرآن الكريم والكتاب العزيز ما كان له أن يُفْترى من دون الله تعالى وما ينبغي له أن يتقوّله أحدٌ من عند غير الله تعالى لأن أحداً لا يستطيع ذلك ولأنّ الإنس والجنّ مجتمعين لا يستطيعون أن يأتوا بمثل سورة واحدة ، فضلاً عمّا وراء السّورة الواحدة من مثل هذا الكتاب العزيز .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ القرآن الكريم إنّما هو تصديق الكتب السّماويّة السّابقة الموحى بها إلى الرّسل الكرام السّابقين ، كتوراة موسى عليه السّلام ، وإنجيل عيسى عليه السّلام ، ومهيمن عليها وشاهدٌ على صحّتها فيما اتّفق منها معه ، وعلى تحريفها فيما اختلف منها معه . والقرآن الكريم كذلك تفصيل ما كتبه الله تعالى على الأمّة الإسلامية من أحكام ، وتبيين ما فرضه الله تعالى عليها من فرائض ، لا ريب فيه مطلقاً ، ولا شكّ أنّه موحًى به من ربّ العالمين ، نزل به الرّوح الأمين جبريل عليه السّلام ، على قلب خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ .

والآية الكريمة التّالية تؤكّد نفي الافتراء والرّيب عن القرآن الكريم وذلك بالتّحدّي به .

---

(١) تفسير الطبري ٨٢/١١ .
(٢) تفسير الطبري ٨٢/١١ .
(٣) تفسير الطبري ٨٢/١١ .
(٤) تفسير الطبري ٨٢/١١ .
(٥) تفسير الطبري ٨٢/١١ .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

أم يقولون افتراه : أم ههنا في موضع ألف الاستفهام لأنها اتّصلت بما قبلها . وقيل : هي أم المنقطعة التي تقدّر بمعنى بل والهمزة ، كقوله تعالى : الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين . أم يقولون افتراه ، أي بل أيقولون افتراه[1] .

وادعوا من استطعتم من دون الله : وادعوا أيّها المشركون ، على أن يأتوا بسورة مثلها ، من قدرتم أن تدعوا على ذلك من أوليائكم وشركائكم من عند غير الله[2] واستعينوا على ذلك بكلّ ما قدرتم عليه من إنسٍ وجان[3] .

إن كنتم صادقين : في أنّه افتراء[4] وأنّ محمّداً افتراه[5].

بعد أن نفت الآية الكريمة السّابقة أن يكون القرآن الكريم مفترًى من عند غير الله تعالى تتحدّث الآية الكريمة التّالية عن المصرّين على الزّعم بأنّ القرآن الكريم مفترًى من عند غير الله تعالى وتقول : بل أيقول أولئك المشركون المفترون على الله تعالى الكذب أن محمّداً ﷺ قد افترى القرآن الكريم وأتى به من عند نفسه ، ويصرّون على هذا الادّعاء الكاذب ! قل يا محمّد لأولئك الكاذبين إن زعمتم ذلك وأصررتم على الافتراء على الله تعالى الكذب فأتوا بسورة واحدة مثله ومن أصغر سوره كسورة الكوثر التي تتألّف من ثلاث آيات كريمات فقط . بل وادعوا من أجل تحقيق أمنيّتكم الرّخيصة وغايتكم الخسيسة من استطعتم دعوته من دون الله تعالى من الذين يرون رأيكم ويحرصون على عونكم من الإنس والجنّ كي تأتوا بتلك السّورة الواحدة إن كنتم صادقين في أنّ القرآن الكريم مفترًى من عند غير الله تعالى وأنّه ليس كلام ربّ العالمين .

والمعروف أنّ هذه الآية الكريمة من سورة يونس تمثّل المرحلة الثّالثة من المراحل الأربع للتّحدّي بالقرآن الكريم .

لقد تحدّى القرآن الكريم الإنس والجنّ مجتمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم فلم يُستَجَبْ للتّحدّي . قال تعالى[6] : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبي ٣١٨٣ .
(٢) تفسير الطبري ٨٢/١١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤١٧/٢ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ٨٢/١١ .
(٦) سورة الإسراء ٨٨ .

ثمّ تحدّى القرآن الكريم الإنس بعامّة ، العرب بخاصّة ، وهم فرسان البيان الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم أن يأتوا بعشر سورٍ مثله فعجزوا . قال تعالى[1] : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

ثمّ تحدّاهم في الآية الكريمة التي نحن بصددها من سورة يونس أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثله فعجزوا .

ثمّ تحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله وذلك في الآية الكريمة الثّالثة والعشرين من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم في رَيْبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

والشّيء اللّطيف الذي يمكن الإشارة إليه والتّنويه به هو مجيء جملة : « أتى » وليس جملة : « جاء » في كلّ آيات التّحدي رغم التّدرّج مع القوم في التّحدّي من الصّعب إلى السّهل . وفي مجيء جملة : « أتى » تأكيدٌ للتّحدّي وذلك أنّ جملة : « أتى » لا تُسْتَعْمَل في القرآن الكريم إلّا دليلاً على البعد المكاني أو الزّمانيّ أو المعنويّ وإنّ جملة : « جاء » لا تُسْتَعْمَلُ في القرآن الكريم إلّا دليلاً على القُرْب المكانيّ أو الزّمانيّ أو المعنويّ . ونكتفي بدليل واحد من القرآن الكريم على هذا الفرق الدّقيق بين الاستعمال لهاتين الجملتين . جاء على لسان قوم موسى عليه السّلام في سورة الأعراف قوله تعالى[2] : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

إنّ آيات التّحدّي كلّها تقرّر أنّ سورة واحدة من مثل أقصر سور القرآن الكريم لا يمكن الإتيان بها ومن باب الأَوْلى ما وراء ذلك .

جاء في الحديث الصّحيح عن رسول الله ﷺ أنّه عليه الصلاة والسلام قال : ما من نبيٍّ من الأنبياء إلّا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً[3] .

---

(١) سورة هود ١٣ .

(٢) سورة الأعراف ١٢٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤١٨ .

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

تبيّن الآية الكريمة السّبب الحقيقيّ وراء الحماقات التي يرتكبها الظّالمون فتسكت عن كلّ تخرّصاتهم وتُضْرِب باستعمال الأداة : « بل » التي تُبْطِل ما قبلها من التّرّهات وتقرّر أن الباعث للقوم على التّكذيب هو أنّهم لم يحيطوا بعلم الكتاب العزيز ولم يفهموه ولم يتدبّروه ، وأنّهم كذلك لم يأتهم بَعْدُ تأويل هذا الكتاب العزيز ولم يصلهم بعد المعاني التي يئول إليها هذا القرآن الكريم المشتمل على التّهديد والوعيد ، وعلى المعجزات المتعلّقة بالغيبيّات وبالنّفس الإنسانيّة وبالآفاق وما إلى ذلك من معجزات لا يأتي عليها الحصر لهذا الكتاب العزيز .

وتقرّر الآية الكريمة أنّه كما كذّب كفّار مكة محمد بن عبد الله ﷺ كذّب الذين من قبلهم رسلهم . وقد أخذ الله تعالى المكذّبين السّابقين أخذ عزيز مقتدر : « فكلًّا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصَّيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا »[1] وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ابتداءً ، وكلّ إنسان وراء ذلك تبعاً ، أن ينظر بعين رأسه وبعين بصيرته كيف كان عاقبة الظّالمين الذي دمّر الله تعالى عليهم تدميراً . إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : يا كفّار مكّة خذوا حذركم وعودوا إلى الصّراط المستقيم وإلّا كانت عاقبتكم شبيهةً بعاقبة الظّالمين السّابقين .

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى أن من أسباب إعراض كفّار مكّة عن القرآن الكريم أنّهم لم يتبيّنوا بَعْدُ المعاني التي أشار القرآن الكريم إلى تحقّقها مستقبلاً من الأدلّة على أنّ القرآن الكريم موحًى به من ربّ العالمين . وإنّ الآية الكريمة التي نحن بصددها تشير إلى واحد من هذه المعاني في مجال الإنباء بالغيب . وقد تحقّق هذا المعنى في المستقبل من الأيّام دليلاً على صدق القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب . إن الآية الكريمة تقرّر أن من أهل مكة الكافرين اليوم المكذّبين للقرآن الكريم من يؤمن بالقرآن الكريم مستقبلاً ويقرّ أنه كلام ربّ

---

(١) سورة العنكبوت ٤٠ .

العالمين ويعترف أنّه موحًى به إلى أشرف الأنبياء والمرسلين . كما تقرّر أنّ من أهل مكّة من لا يؤمن بالقرآن الكريم لا في الحال ولا في المآل بل يصرّ على الكفر والتكذيب . وما معنى الكفر والتكذيب ؟ دخول النّار وبئس القرار .

والآية الكريمة في التذييل : « وربّك أعلم بالمفسدين » تسرّي عن المصطفى ﷺ وتسلّيه في خطابه بالقول : « وربّك » إذ المعروف أن لفظ الرّبّ في القرآن الكريم يستعمل في مواقف الخصوص والتّنبيه إلى النّعم والآلاء والإيماء إلى جوّ الرّضا والحنان ، كما أنّها تصف أولئك المصرّين على كفرهم بأنّهم المفسدون في الأرض الذين لا يصلحون والذين يعلمهم الله تعالى على حقيقتهم .

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

على الرّسول الكريم ﷺ البلاغ وحده وعلى الله تعالى الحساب . إنّ هذا هو فحوى الآية الكريمة التي تقول للمصطفى ﷺ : إنّ القوم الكافرين إذا أصرّوا على تكذيبك بعد كلّ هذه الآيات البيّنات فقل لهم إنّ لي عملي الذي سأثاب عليه أو أعاقب ، وإنّ لكم عملكم الذي ستثابون عليه أو تعاقبون . أنتم بريئون ممّا أعمل من آثام ، وأنا بريء ممّا تعملون من آثام . ويوم القيامة يجمع الله تعالى بيننا ، ويحكم بيننا بالحقّ وهو جلّ وعلا خير الحاكمين .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ من المشركين من يستمعون إلى النّبيّ ﷺ وهو يرتّل القرآن الكريم ترتيلاً ويبيّن للنّاس معنى ما أنزله الله تعالى إليه من الوحي . وإنّ هؤلاء القوم يسمعون أحسن القول منه ﷺ بآذانهم الحسّيّة وليس بآذانهم الواعية ، ولهذا هم لا يتّبعون أحسن القول ولا يؤمنون . ولمّا كان الهدف من السّماع هو الفهم والوعي والتّفكّر والتّدبّر والإيمان ، وهذه المعاني تتجاوز مرحلة السّماع المجرّد التي يستوي فيها الإنسان والحيوان ، ولمّا

كان المشركون لم يتجاوزوا مرحلة السّماع المجرّد إلى مرحلة السّماع الواعي لذلك كانوا بمثابة الذين لا يسمعون أصلاً وهم الصّمّ الذين لا يسمعون شيئاً ولا يهتدون سبيلاً . إنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ في أسلوب الاستفهام الإنكاري : أتستطيع أيّها الرّسول الكريم الذي توشك أن تهلك نفسك من الحزن لانصرافهم عن دعوتك ، أتستطيع أن تحملهم على الإيمان بأحسن القول بعد أن زادهم الله تعالى صمماً إلى صممهم فغدوا بمنزلة الصّمّ الذين لا يسمعون شيئاً أصلاً ؟ وكأنّ الآية الكريمة حينما تنزل المعرضين منزلة الصّمّ الذين لا يسمعون أساساً إنّما تهبط بالقوم عن درك الأنعام التي تسمع . إنّ الإنسان الكافر والأنعام يشتركان في مرحلة السّماع المجرّد . وبما أن الأنعام غير مكلّفة وتحرص بغريزتها على ما ينفعها ، وبما أنَّ الكافر مكلّف ويعطّل نعمة العقل مناط التّكليف ولم يتحوّل بنعمة السّمع من مرحلة السّماع المجرّد إلى مرحلة السّماع الواعي التي من أجلها أكرم الله تعالى الإنسان بالسّمع فكأنّ الكافر لا سمع له أصلاً وكأنّه ينحطّ عن درك الأنعام وكأن لسان حال الآية الكريمة ينطق بهذه الآية الكريمة من سورة الأعراف[1] : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبْصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾ .

وليس بخافٍ دور السّماع المتقدّم ، في مجال الحصول على المعارف ، والمتفوّق على دور العين غالباً حينما يراد الحديث المجرّد عن وسائل تحصيل العلم . وها هي ذي الآية الكريمة تعطي الدّليل على ذلك بتقديم حديثها عن السّمع وتأخير حديثها عن العين في الآية الكريمة التّالية .

إنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن ذلك الفريق من المكذّبين أيضاً وتقرّر أنّهم ينظرون إلى المصطفى ﷺ وينعمون برؤية ما خصّ الله تعالى به المصطفى ﷺ من أدلّةٍ على نبوّته عليه الصلاة والسلام من وجهٍ مشرق ، ولسان صادق ، وخفض جناح للمؤمنين إلى آخر ما خصّ الله تعالى به المصطفى ﷺ من نعم وآلاء . إنّ العين ، في مثل هذه الحال ، ينبغي أن تقود إلى الهداية على غرار ما كان من المؤمنين الصّادقين الذين رأوه ﷺ . وحينما لا تؤدّي العين إلى الغاية منها فما الفرق إذن بين الأعمى والبصير ؟ خاصّةً إذا عرفنا أنّنا في الحقيقة إنّما نتعامل مع عين البصيرة التي تقود إلى الهداية حينما تكون نيّرة وليست عمياء . لا فرق . وهذا ما نبّهت عليه الآية الكريمة السّابقة ، وحينما بيّنت للمصطفى ﷺ أنّه لن يهدي القوم لأنّ

---

(١) الآية ١٧٩ .

قلوبهم في صمم حينما يُبْصرون ، ولأنهم عمي البصائر ، وكأنّ لسان حال الآية الكريمة ينطق بهذه الآية الكريمة من سورة الحج[1] : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تعمي الأبصار ولكن تَعْمَى القلوب التي في الصّدور ﴾ .

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة تبيّن الحكمة من زيادة الصّمّ صمماً وزيادة العمى عمًى . إنّهم انصرفوا فصرف الله تعالى قلوبهم عن الحقّ . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لا يظلم النّاس شيئاً ولكنّ النّاس يظلمون أنفسهم . يعطّلون السّمع فيزيدهم الله تعالى صمماً إلى صممهم . ويعطّلون البصر فيزيدهم الله تعالى عمًى إلى عماهم . وكأنّ لسان حال الآية الكريمة ينطق بهذه الآية الكريمة من سورة التّوبة[2] : ﴿ وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ نظر بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم مِنْ أَحَدٍ ثمّ انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ .

وبشأن الآيتين الكريمتين الأوليين يقول ابن قتيبة[3] : « دلّ على فضل السّمع على البصر حين جعل مع الصّمم فقدان العقل ، ولم يجعل مع العمى إلّا فقدان النّظر » .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحشر أولئك المشركين يوم القيامة ويجمعهم لفصل الخطاب . وبسبب شدّة أهوال يوم القيامة يشعرون في أعماقهم كأنّهم لم يلبثوا في الحياة الدّنيا إلّا ساعةً واحدةً من ساعات النّهار ، الواضحة المعالم ، المحدّدة الأبعاد ، المفعمة بالمشاغل . إنّ في تلك السّاعة ، وما أقصرها في الحياة الدّنيا ، قد تمكّنوا من التّعارف ، وإنّ في تلك السّاعة ، وما أطولها في الحياة الآخرة ، قد تمكّنوا من التّلاوم[4] لقد تأكّد للذين كذّبوا بلقاء الله تعالى أنّهم هم الخاسرون لأنّهم لم يكونوا مؤمنين ولا مهتدين ولا مصدّقين بيوم القيامة .

---

(١) الآية ٤٦ .
(٢) الآية ١٢٧ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ٥ .
(٤) انظر مثلاً تفسير ابن عطية ١٥٨/٧ .

« الله تعالى هو المجازي في الأولى والآخرة
المحيي المميت وإليه المرجع »
الآيات (٤٦ ــ ٥٦)

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

الآية الكريمة هي في معرض تسلية المصطفى ﷺ والتّسرية عنه . إنّها تقول له عليه الصّلاة والسّلام بشأن أولئك المصرّين على كفرهم : إمّا نرينّك أيّها الرسول الكريم والنّبيّ العظيم في حياتك بعض الذي نعد أولئك الكافرين من عقاب . وجواب الشّرط محذوف أي فذاك[1] أو نتوفّينّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم قبل أن نرينّك عذابنا لهم وإيقاعنا بهم فإلينا مرجعهم ولن يفوتونا وسيجازيهم الله تعالى على كلّ صغيرة وكبيرة فإنّ الله سبحانه وتعالى شهيد ، هكذا في صيغة المبالغة ، على ما يفعلون ويقولون وينوون . يعلم ما توسوس به أنفسهم ومن باب الأَوْلى ما ظهر من قولٍ أو عمل .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ لكلّ أمّةٍ رسولاً أرسله الله تعالى إليها لإخراجها من ظلمات الشّرك والجهل إلى نور التّوحيد والعلم . فإذا جاء رسول كلّ أمّةٍ يوم القيامة كان حساب كلّ أمّةٍ أمام رسولها وقُضِي بينهم بالقسط وحُكِم بينهم بالعدل . وهم لا يظلمون بحذف حسنة أو إضافة سيّئة . « وهذه الأمة الشّريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلّا أنها أوّل الأمم يوم القيامة يُفْصَل بينهم ويُقْضَى كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنّه قال : نحن الآخِرون السّابقون يوم القيامة ، المقضيّ لهم قبل الخلائق . فأمّته إنّما حازت قصب السّبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدّين »[2] .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤١٩ .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ
لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ إِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

لكلّ أمّة أجل : لكلّ قوم ميقات لانقضاء مدّتهم وأجلهم[1] ومدّة من العمر مقدّرة[2] .

يسأل كفّار مكّة المصطفى ﷺ مستهزئين عن موعد عذابهم وعن يوم القيامة إن كان المصطفى ﷺ والمؤمنون صادقين بأنّ بعد الموت بعثاً ونشوراً وحساباً ، ثواباً أو عقاباً . وإذا كانت الآية الكريمة الأولى قد اشتملت على سؤال الكافرين فإنّ الآية الكريمة التّالية تلقّن المصطفى ﷺ الجواب وتأمره أن يقول للمشركين إنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يملك لنفسه ، فضلاً عن سواه ، دفع ضرٍّ أو جلب نفع إلا ما شاء الله سبحانه وتعالى أن يدفع عنه من ضرّ أو يجلب إليه من نفع . وإن لسان حاله عليه الصّلاة والسّلام ليقول : إذا كنت فيما يخصّ نفسي لا أملك شيئاً في مجال المحسوسات فضلاً عن المعنويّات فكيف أملك أن أجيبكم على سؤالكم عن يوم القيامة والوقت الذي تقوم فيه السّاعة . إنّ الله تعالى أعلمني بقيام السّاعة وقد أخبرتكم به ، واحتفظ جلّ وعلا لنفسه بالعلم بوقت قيامها ، فلا أستطيع أن أجيبكم على سؤالكم .

ولمّا كان المهمّ في الأمر هو العمل من أجل اليوم الآخر بعد الإيمان به ، وكان الموت هو الفاصل بين الحياتين الأولى والآخرة فعلى النّاس أن يعملوا في دنياهم من أجل آخرتهم فقد كان ثمّة تنبيه في الآية الكريمة على هذا المنعطف الخطير بين الأولى والآخرة وهو منعطف الموت كي يستعدّ النّاس لما بعده . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ لكلّ أمّة أجلاً ومدّةً من العمر مقدّرة لها ، إذا انقضت رجعت إلى بارئها ، وإذا حانت ساعتها لا يستأخرون ساعةً واحدة ، ولو حرصوا ، ولا يستقدمون ساعةً واحدةً ، ولو حرصوا هم أو حرص سواهم على ذلك .

---

(١) تفسير الطبري ١١/٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٢٠ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

بياتاً : ليلاً[1] .

أثُمَّ : الهمزة للاستفهام . ثمّ حرف عطف[2] والمعنى أهنالك[3] .

بما أن كفّار مكّة منكرون ليوم القيامة مستهزئون في سؤالهم عن وقت قيام السّاعة فإنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك العابثين في سؤالهم المستهزئين : أخبروني إن أتاكم عذاب الله تعالى ليلاً وأنتم نائمون ، أو نهاراً وأنتم تلعبون ، ما الذي تستفيدون أيّها المجرمون من استعجاله . إنّ عقابكم وعقاب أمثالكم أليمٌ في الأولى والآخرة فهل سؤالكم بقصد استعجال العذاب ؟ إنّ القوم مستهزئون ومنكرون ليوم القيامة . ونستطيع أن نفهم من تقديم اللّيل وتأخير النّهار تحوّل المشركين في عمل الموبقات من السّيّء إلى الأسوأ . إنّهم يرتكبون الآثام ليلاً ، وقد يحلّ بهم العذاب ليلاً . وإنّهم يرتكبون الآثام نهاراً ، وعلى رءوس الأشهاد ، وقد يحلّ بهم العذاب نهاراً . وإنّ الآية الكريمة تذكّرنا بمثل قوله تعالى في سورة الأعراف[4] : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن من مكر الله إلّا القوم الخاسرون ﴾ .

ولمّا كان المنكرون للبعث المستهزئون بالعذاب لا يريدون أن يحلّ بهم العذاب ، فهل سؤالهم عن وقت قيام السّاعة أو حلول العذاب كي يؤمنوا . ولكنّ ذلك لا ينفعهم . وإن الآية الكريمة التّالية وضّحت هذا المعنى . إنّ الآية الكريمة في سؤالها المشركين تنكر عليهم أن

---

(١) تفسير الطبري ٨٥/١١ وتفسير ابن كثير ٤٢٠/٢ والجلالين .
(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢١/٦ .
(٣) تفسير الطبري ٨٥/١١ .
(٤) الآيات ٩٧ ــ ٩٩ .

ينفعهم إيمانهم بعد وقوع العذاب كما أنّها تشير إلى السّؤال الإنكاري عليهم آنذاك : أتؤمنون الآن حين لا ينفع الإيمان وأنتم الّذين كنتم تستهزئون وتكفرون وتستعجلون العذاب في الوقت الذي كان ينفعكم الإيمان ؟

وإن الآية الكريمة الثّالثة تقرّر أن الظّالمين الذين لم ينفعهم إيمانهم ساعة وقوع العذاب سوف يقال لهم يوم القيامة ذوقوا عذاب الخلد في نار جهنّم . إنّكم ما تجزون إلّا بما كنتم تكسبون في الدّنيا من ذنوب وآثام .

والمعروف أن حرف العطف « ثمّ » يفيد التّرتيب مع التّراخي . ولهذا الحرف دورٌ في كلٍّ من الآيتين الكريمتين الثّانية والثّالثة . إنه يدلّ في الآية الكريمة الثّانية على إمهال الله تعالى للمستهزئين وظنّهم الإمهال إهمالاً حتّى أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر . وإنّه يدلّ في الآية الكريمة الثّالثة على ما بين وقوع العذاب في الدّنيا والخلود في النّار في الآخرة من وقت .

﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

قل إي وربّي : قل نعم وربّي[1] وإي حرف جواب[2] .

على الرّغم من كل هذه الآيات البيّنات والحجج الواضحات التي تدلّ على أنّ العذاب حقّ ، ويوم القيامة حقّ فإن المشركين المستهزئين يسألون عن العذاب وعن يوم القيامة : « أحقٌّ هو » ؟ وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول في جوابه نعم وربّي إنّ يوم القيامة حقّ ، والحساب حقّ ، والجزاء حقّ . ومن البيّن دور القول : « وربّي » في إضفاء القوة على الجواب والصّدق والحرص على إيمان القوم رغم تماديهم في الاستهزاء . إنّ هؤلاء السّائلين إن كانوا جادّين ففي الجواب حملٌ لهم على التّحوّل إلى الصّراط المستقيم وفي ذلك نجاتهم . وإن أصرّوا على موقفهم الخاطئ وركبوا رءوسهم واستمرّوا في طغيانهم فليعلم أولئك الكافرون أنّهم ليسوا بمعجزين الله تعالى وليسوا بفائتيه عزّ وجلّ .

---

(١) الجلالين .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/١٢٤ .

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ يوم القيامة حقّ . وإن الآية الكريمة الأولى تتحدّث عن يوم القيامة وعن موقف الكافرين العصيب فيه . إن الآية الكريمة تقرّر أنّ كلّ نفس من بين تلك النّفوس التي ظلمت نفسها وغيرها بصرفها العبادة عن الله تعالى الذي يستحقّها وحده لا شريك له ، لو أن لها كلّ ما في الأرض من مالٍ لافتدت به من سوء العذاب يوم القيامة ، ولكن ليس لأحد شيء يملكه يوم القيامة فكيف يكون لنفس واحدة كلّ ما في الأرض من مال يشترك معها في ملكه في الحياة الأولى كلّ النّاس . ولا ننسى أن مبدأ الفداء مرفوضٌ في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود . وحينما رأى المكذّبون المستهزئون ، وبخاصّة الرّؤساء ، العذاب الأليم يوم القيامة ، أسرّوا النّدامة في أنفسهم بسبب تفريطهم في جنب الله تعالى ، وتكذيبهم رسوله الكريم ، وإنكارهم البعث ، كما أسرّوا النّدامة بدافع الخجل من مرءوسيهم الذي أضلّوهم وزيّنوا لهم سوء أعمالهم . وفي ذلك اليوم يحكم الله تعالى بين الجميع بالعدل وهم لا يظلمون بحذف حسنة أو إضافة سيّئة .

وتؤكّد الآية الكريمة التّالية فحوى الآية الكريمة السّابقة وتضيف الجديد من المعاني . إنّها تبيّن أنّ لله تعالى ما في السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً . إنّ النّاس لا يملكون يوم القيامة شيئاً فإنّ الملك يومئذٍ لله تعالى ، وإنّ الله تعالى الذي له ملك السّماوات والأرض قادرٌ على بعث الخلائق من جديد بعد جمع أجزائهم المبعثرة في البرّ والبحر وفي كلّ مكان . وتؤكّد الآية الكريمة أنّ وعد الله تعالى بالحساب فالجزاء يوم القيامة حقّ ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون .

والآية الكريمة الثّالثة تؤكّد فحوى الآيات الكريمات السّابقات فتقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الذي يحيي ويميت وإليه يرجع الخلائق يوم القيامة بالبعث والنّشور .

« بالقرآن الهُدى ، وبالإسلام الفضل ،
يكون الفرح لا بحطام الدنيا .
وإصرار أكثر الناس على الكفر »
الآيات (٥٧ ــ ٦٠)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

قد جاءتكم موعظةٌ من ربّكم : ذكرى تذكّركم عقاب الله وتخوّفكم وعيده[1] .

تخاطب الآية الكريمة النّاس بعامّة ، كفّار مكّة بخاصّة ، وتقول لهم إنّهم قد جاءتهم فعلاً ووصلتهم موعظة من ربّهم جلّ وعلا . وهذه الموعظة هي القرآن الكريم الذي يهدي للطّريقة التي هي أقوم . وما ألطف القول : « من ربّكم » لأنّ لفظ الرّبّ يستعمل في القرآن الكريم في مواطن الخصوص وحينما يكون الجوّ عابقاً بشذا الحبّ والحنان . إنّ الجوّ ودّيّ ، وإنّ النّاس قد جاءهم من ربّهم جلّ وعلا الذي ربّاهم بنعمه ونشّأهم بآلائه موعظةٌ للقلوب ، وشفاءٌ لما في الصّدور من أمراض الشّكوك والرّيب والشّبه ، وهدًى من الضّلالة ، ورحمةٌ للمؤمنين .

قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للنّاس إنّهم بفضل الله تعالى عليهم وبنعمة إرسال الله تعالى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين بدين الإسلام الذي رضيه الله تعالى لنا ، وإنّهم برحمة الله تعالى عليهم بإنزال القرآن الكريم الذي يهدي للطّريقة التي هي أقوم وبإيحائه إلى خير الأنام محمد بن عبد الله ﷺ : « فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون » إنّ ما يجمعه النّاس من حُطام الدّنيا الفاني وزهرتها الذّابلة لا يستحقّ أن يكون باعثاً حقيقياً على الفرح . إنّ الباعث الحقيقيّ على الفرح الحقيقيّ هو نعمة الإسلام ورحمة القرآن .

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

---

(١) تفسير الطبري ١١/٨٦ .

وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

أصرّ كفّار مكّة على الإعراض عن فضل الله تعالى المتمثّل في دين الإسلام ، وعن رحمة الله تعالى المتمثّلة في القرآن ، وفرحوا بحطام الدّنيا الذي يجمعون ، ومنها الأنعام والحرث ، وكانت عندهم الجراءة على إحلال ما حرّم الله تعالى وتحريم ما أحلّ الله تعالى . وإنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان في هذه المعاني .

إنّ الآية الكريمة الأولى تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المشركين : أخبروني عمّا أنزل الله تعالى لكم من السّماء من رزقٍ في هيئة المطر الذي ينمو به الزّرع والضّرع فجعلتم منه حراماً وحلالاً بزعمكم وبرأيكم . قل لهم يا محمّد آلله سبحانه وتعالى أذن لكم في ذلك التّحريم والتّحليل أم أنّكم تفترون على الله تعالى الكذب . ومعروفٌ أنّ القوم يفترون على الله تعالى الكذب . ومن الآيات الكريمات التي أشارت إلى جراءة الأقوام في التّحريم والتّحليل قوله تعالى[1] : ﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ لا يطعمها إلّا من نشاء بزعمهم وأنعامٌ حرّمت ظهورها وأنعامٌ لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ .

والآية الكريمة تقدّم في الذّكر التّحريم على التّحليل ممّا يفهم معه أنّ الحرام ليس فقط في ارتكاب ما نهى الله تعالى عنه ، وإنّما هو كذلك في تحريم ما أحلّ الله تعالى . وربّما كان التّحريم أشدّ جرماً لأنّ من يرتكب حراماً يعلم أنّه يرتكب خطأً ويأتي خطلاً ، فهل هذا الذي يحرّم ما أحلّ الله تعالى يريد أن يتمّ نقصاً في الدّين والله سبحانه وتعالى يقول[2] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ ! .

وإنّ الآية الكريمة التّالية تسأل في إنكار : وما ظنّ هؤلاء الذين يفترون على الله تعالى الكذب في مجال الحرام والحلال ؟ أيظنّون أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقبهم يوم القيامة ؟ لماذا يفسّرون إمهال الله تعالى لهم إهمالاً ؟ إن الله سبحانه وتعالى لذو فضلٍ على النّاس حينما لا يعاقبهم على الفور وحينما يملي لهم رجاء الإفاقة من الغيّ والعودة إلى الله تعالى ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون لله تعالى نعمه وآلاءه بل يكفرون .

---

(١) سورة الأنعام ١٣٨ .

(٢) سورة المائدة ٣ .

« علم الله تعالى العزيز القادر محيط ،
وثواب المتّقين عظيم ، وعذاب
المفترين على الله الكذب أليم »
الآيات (٦١ ــ ٧٠)

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

وما تكون في شأن : الشّأن الخطب والأمر ، وجمعه شئون . قال الأخفش : تقول العرب ما شَأَنْتُ شَأْنه ، أي ما عملت عمله[1] والمعنى : وما تكون يا محمّد ـ والمراد هو وغيره ـ في شأنٍ من جميع الشّئون[2] .

وما تتلو منه : قال الفرّاء والزّجّاج : الهاء في « مِنْه » تعود على الشّأن ، أي تحدث شأناً فيتلى من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو ينزل فيه قرآن فيُتْلَى[3] ويقول الطّبريّ[4] : « وما تقرأ من كتاب الله من قرآن » ويقول ابن عطيّة[5] : « الضّمير عائدٌ على شأن أي فيه وبسببه من قرآن » .

إذ تفيضون فيه : تأخذون وتنهضون بجدّ . يقال : أفاض الرّجل في سيره وفي حديثه ، ومنه الإفاضة في الحجّ[6] .

وما يَعْزُب : يغيب حتى يخفى ، حتى قالوا للبعيد : عازب[7] .

مِنْ مثقال ذرّة : مِنْ زِنة نملة صغيرة . يُحْكَى عن العرب : خذ هذا فإنّه أخفّ مثقالاً من ذاك ، أي أخفّ وزناً . والذّرّة واحدة الذّرّ والذّرّ صغار النّمل[8] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ أساساً ، وكلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بعد ذلك وتقول : وما تكون في شأنٍ من شئونك وأمرٍ من أمور حياتك ، وما تتلو بسببه من قرآن ، وتقرأ فيه من كتاب ربّك العزيز ، ولا تعملون أيّها النّاس من عملٍ صالحٍ أو غير صالحٍ ، إلّا كنّا عليكم شهوداً ، ومعكم حاضرين إذ تفيضون فيه ، وتقومون به ، وتنهضون بجدّ واجتهاد .

---

(١) تفسير القرطبي ٣١٩٥ .
(٢) تفسير ابن عطية ١٧٢/٧ .
(٣) تفسير القرطبي ٣١٩٥ .
(٤) تفسير الطبري ٩٠/١١ .
(٥) تفسير ابن عطية ١٧٢/٧ .
(٦) تفسير ابن عطية ١٧٢/٧ .
(٧) تفسير ابن عطية ٧٣/٧ .
(٨) تفسير الطبري ٩٠/١١ .

ويلاحظ أنّ الخطاب حينما كان متّجهاً إلى المصطفى ﷺ كان ثمّة تقريرٌ لشئونه عليه الصّلاة والسّلام وأموره وأحواله من ناحية ، وتلاوته للقرآن الكريم المستمرّة من ناحية أخرى . وحينما كان الخطاب متّجهاً إلى الأمّة كلّها أو إلى النّاس أجمعين ، وفيهم الصّالح والطّالح كان ثمّة الإشارة إلى مطلق العمل ، وفيه الصّالح وفيه الطّالح .

وتأكيداً لعلم الله تعالى المحيط تقرّر الآية الكريمة علم الله تعالى المحيط الذي لا يغيب عنه زنة أصغر نملة في الأرض ولا في السّماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . إنّ كلّ ذلك مكتوب في اللّوح المحفوظ . وينبغي أن يكون للفظ الرّبّ في القول خطاباً للمصطفى ﷺ : « من ربّك » دورٌ في إضفاء شعور الودّ على هذا الموقف المهيب الرّهيب .

وإذا كان في هذه الآية الكريمة من سورة يونس قد جاء القول : « وما يَعْزُبُ عن ربّك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء ولا أَصْغَرَ من ذلك ولا أكبر إلّا في كتابٍ مبين » وفيه تقديم الأصغر على الأكبر حقيقةً ، أعني تقديم الأرض في الذّكر على السّماء ، ولفظاً ، أعني تقديم الأصغر في الذّكر على الأكبر ، وهذا نوعٌ من أنواع الانسجام في المعاني ، فإنّ في هذه الآية الكريمة من سورة سبأ[1] قد جاء القول : ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السّماوات ولا في الأرض ولا أَصْغَرُ من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين ﴾ وفيه يتّضح علم الله تعالى المحيط ، يتّضح من البون الشّاسع في الحجم بين الذّرّة من ناحية ، وبين السّماوات والأرض من ناحية أخرى . إنّ لسان الحال يقول : إن كان ثمّة إحاطةٌ بمثقال الذّرّة في السّماوات وهي الأكبر فمن باب الأَوْلى أن تكون ثمّة إحاطة بمثقال الذّرّة في الأرض وهي الأصغر . وإنّ لسان المقال في الآيتين الكريمتين يصرّح بإحاطة الله تعالى بما هو أصغر من مثقال الذّرّة في السّماوات والأرض وبما هو أكبر من ذلك .

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

---

(١) الآية ٣ .

ألا إن أولياء الله : ألا إنّ أنصار الله[1] جمع وليّ وهو النّصير[2] .

لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون : لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله لأنّ الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدّنيا[3] .

لهم البشرى في الحياة الدّنيا وفي الآخرة : فسّرت في حديثٍ صحّحه الحاكم بالرّؤيا الصّالحة يراها الرّجل أو ترى له وفي الآخرة بالجنّة والثّواب[4] وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنّة والمغفرة[5] ويقال للخبر السّارّ البشارة والبُشْرَى[6] وأَبْشَرْت الرّجل وبشّرته وبَشَرْته أخبرته بسارٍّ بسط بَشَرَةَ وجهه[7] .

لا تبديل لكلمات الله : لا خلف لمواعيده[8] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ أولياء الله تعالى وأنصار دينه لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون من أحوال القيامة وأهوالها ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم في الحياة الدّنيا من أهلٍ وجاهٍ ومال .

وتبيّن الآية الكريمة الثّانية صفة أولياء الله تعالى . إنّهم الذين آمنوا بالله تعالى ربًّا واتّقوه جلّ وعلا في السّرّ والعلن وتمثّلت فيهم مرتبة الإحسان كما بيّنها الحديث النّبويّ الشّريف بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[9] .

والآية الكريمة الثّالثة تبيّن حياة أولياء الله تعالى الطّيّبة في الأولى والآخرة . وقد قال تعالى[10] : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحْسَنِ ما كانوا يعملون ﴾ إنّ لأولياء الله تعالى البُشْرى في الحياة الأولى وفي الآخرة . عن عبادة بن الصّامت أنّه قال لرسول الله ﷺ : لهم البُشْرَى في الحياة الدّنيا وفي الآخرة . فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنّة فما بُشْرَى الدّنيا ؟ قال : الرّؤيا الصّالحة يراها العبد أو تُرى له . وهي جزءٌ من أربعةٍ وأربعين جزءاً أو سبعين جزءاً من النّبوّة[11] وروى ابن جرير في تفسيره[12] عن أمّ كرز[13] الكعبيّة أنّها سمعت رسول الله ﷺ يقول : ذهبت النّبوّة وبقيت المبشّرات . ويقول ابن كثير[14] : « وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عبّاس ومجاهد

---

(١) تفسير الطبري ٩١/١١ .
(٢) تفسير الطبري ٩١/١١ .
(٣) تفسير الطبري ٩١/١١ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير ابن كثير ٤٢٤/٢ .
(٦) مفردات الراغب الأصفهاني : « بشر » ٤٨ .
(٧) مفردات الراغب الأصفهاني : « بشر » ٤٨ .
(٨) الجلالين .
(٩) صحيح البخاري ٢٠/١ .
(١٠) سورة النحل ٩٧ .
(١١) تفسير ابن كثير ٤٢٣/٢ .
(١٢) ٩٤/١١ .
(١٣) في تفسير ابن كثير ٤٢٤/٢ كريز .
(١٤) تفسير ابن كثير ٤٢٤/٢ .

وعروة بن الزّبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النَّخَعيّ وعطاء بن أبي رباح وغيرهم أنّهم فسّروا ذلك بالرّؤيا الصّالحة . وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنّة والمغفرة » .

وتقرّر الآية الكريمة أنّه لا تبديل لكلمات الله تعالى ولا خلف لوعده ولا لوعيده جلّ وعلا . إنّ ثواب الله تعالى عباده محض الفضل ، وإنّ عقاب الله تعالى عباده خالص العدل .

وإنّ التّعقيب في الآية الكريمة : « ذلك هو الفوز العظيم » ينبّه إلى أنّ اتّجاه الآية إلى الثّواب في المقام الأوّل ، وإلى وعده بالنّعيم المقيم في جنّات النّعيم ، وقد جاءت البشرى من بين يدي الوعد وجاء الفوز العظيم من خلفه .

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

جميعاً : حال من العزّة منصوبة[1] .

الآية الكريمة في معرض تسلية المصطفى ﷺ والتّسرية عنه بسبب حزنه عليه الصّلاة والسّلام لإعراض قومه عن دعوته إلى صراط العزيز الحميد وقولهم عنه ﷺ ، على سبيل المثال : « لست مرسلاً »[2] إنّ الآية الكريمة تقرّر أن لله سبحانه وتعالى لا شريك له كلّ القوّة وجميع العزّة فما أضعف أولئك الكافرين وما أهون شأنهم . إنّ الله سبحانه وتعالى هو السّميع لكلّ قول ، العليم بكلّ نيّة وفعل ، المجازي على كلٍّ من الإحسان والإساءة ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلّا من أتى الله بقلب سليم .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

إن يتّبعون إلّا الظّنّ وإن هم إلّا يخرصون : ما يتّبعون في قيلهم ذلك ودعواهم إلّا

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٣٦/٦ .

(٢) سورة الرعد ٤٣ .

الظّنّ ، يقول : إلّا الشّكّ لا اليقين . وإن هم إلّا يتقوّلون الباطل تظنّناً وتخرّصاً للإفك عن غير علمٍ منهم بما يقولون[1] وأصل الخَرْص حِزْز الثّمرة فإنّ الخارص يعتمد في خرصه ما على الشّجرة من ثمر والنّخلة من رطب على الظّنّ والتّخمين[2] .

كما كذب المشركون على المصطفى ﷺ كذبوا على الله تعالى الذي له وحده لا شريك له كلّ من في السّماوات ومن في الأرض ، وذلك بإشراكهم في العبادة مع الله تعالى سواه . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ هؤلاء المشركين ما يتّبعون الذين يعبدونهم من دون الله تعالى باعتبارهم شركاء لله تعالى على الحقيقة ، إنّما يتّبعون الظّنّ ، الذي لا يغني من الحقّ شيئاً ، بأنّ هؤلاء المعبودين يقرّبونهم إلى الله تعالى زُلْفى ، كما تقرّر أنّ المشركين إنّما يفترون على الله تعالى الكذب في كلّ تلك الأمور .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

من مظاهر ملك الله تعالى السّماوات والأرض وما فيهنّ أنّه جلّ وعلا جعل لنا اللّيل لنسكن فيه ، والنّهار لنكدح فيه . وتنبيهاً إلى إيجابيّة النّهار جعلت الآية الكريمة النّهار ذاته مبصراً ، وكأنّه هو الذي يبصر بعيني رأسه ، والمراد التّنبيه إلى أنّ الخلائق تبصر في النّهار . وتقرّر الآية الكريمة في التّذييل أنّ في آي الذّكر الحكيم التي أوحاها الله تعالى لنبيّه محمد بن عبد الله ﷺ حُججاً مقنعةً لقوم يسمعون آيات الله تعالى سماع تدبّر .

قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى

---

(١) تفسير الطبري ٩٧/١١ .

(٢) انظر مثلاً مفردات الراغب الأصفهاني : « خرص » ١٤٦ .

الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

إن عندكم من سلطانٍ بهذا : ما عندكم[١] من حجّة[٢] بهذا وليس عندكم دليلٌ على ما تقولونه من الكذب والبهتان[٣] .

قرّر السّياق من ذي قبل أنّ الذين يشركون مع الله تعالى غيره في العبادة ما يعبدون شركاء لله تعالى على الحقيقة ، لأنّ الله سبحانه وتعالى له وحده دون سواه الخلق والأمر . وإنّ الآيات الكريمات الثّلاث التي نحن بصددها تشير إلى صورة من صور الشّرك ، وتحذّر من ارتكاب هذا الذّنب الذي لا يغفره الله تعالى ، وتأمر بوجوب التّبرّؤ من هذا الذّنب على الفور .

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ هنالك من ادّعى أنّ لله سبحانه وتعالى ولداً ، تنزّه جلّ وعلا وتعالى عمّا يقول الظّالمون علوًّا كبيراً . إنّ اليهود مثلاً قالوا إن عُزَيْراً ابن الله ، وإنّ النّصارى قالوا إنّ المسيح ابن الله ، وإنّ مشركي العرب قالوا إنّ الملائكة بنات الله : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً ﴾[٤] .

وبعد تنزيه الآية الكريمة الذّات العليّة عن كلّ ما لا يليق بها في القول : « سبحانه » تنفي أن يكون ثمّة سبب لاتّخاذ الولد أو سواه وذلك في القول : « هو الغنيّ » وإنّ هذه الجملة تؤدّي معنى مثل هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء[٥] : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذّلّ وكبّره تكبيراً ﴾ كما تؤدي معنى مثل هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان[٦] : ﴿ الذي له ملك السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك وخلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديراً ﴾ .

وتؤكّد الآية الكريمة معنى الغِنى في القول : « له ما في السّماوات وما في الأرض » وتنفي أن يكون عند المشركين أيّ حجّة تسمح لهم بهذا الهراء : « إن عندكم من سلطانٍ بهذا » والمعنى : ما عندكم من سلطانٍ بهذا . وتسأل المشركين في أسلوب التّوبيخ والتّقريع : « أتقولون على الله ما لا تعلمون » !

---

(١) تفسير الطبري ٩٨/١١ والجلالين .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٤/٢ .
(٤) سورة الكهف ٥ .
(٥) الآية ١١١ .
(٦) الآية ٢ .

وبما أنّ القوم يفترون على الله تعالى الكذب بنسبة الولد والشّريك إليه جلّ وعلا فإنّ الآية الكريمة الثّانية تأمر المصطفى ﷺ أن يقول وأن يعلن على رءوس الأشهاد : « إنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يُفْلِحون » .

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّ هؤلاء المفترين على الله تعالى الكذب متاعاً في الحياة الدّنيا قصيراً زائلاً بزواهم من هذه الحياة الدّنيا الدّنيّة الشّديدة الهوان على الله تعالى ، ثمّ إلى الله تعالى مرجع هؤلاء المشركين بعد الموت مهما تمتدّ الحياة بالقوم ويتهيّأ النّعيم . وإنّ حرف العطف : « ثمّ » الذي يدلّ على التّرتيب مع التّراخي يشير إلى إمهال الله تعالى لهم لعلّهم يعودون إلى الصّراط المستقيم ولكنّهم بسبب عمى البصائر يفهمون الإمهال إهمالاً . وفي يوم القيامة يذيقهم الله تعالى العذاب الشّديد بسبب كفرهم . وإنّ حرف العطف : « ثمّ » يشير إلى هذا المصير النّكد يوم القيامة بعد الحساب الطّويل العسير في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود : ﴿ ولا يظلم ربّك أحداً ﴾[1] ﴿ وما ربّك بظلّام للعبيد ﴾[2] .

---

(١) سورة الكهف ٤٩ .

(٢) سورة فصّلت ٤٦ .

((طبع الله تعالى على قلوب المعتدين
ابتداءً بقوم نوح عليه السّلام))
الآيات (٧١ ــ ٧٤)

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

نبأ نوح : خبر نوح[1] .

إن كان كبر عليكم مقامي : إن كان عظم عليكم مقامي بين أظهركم وشقّ عليكم[2] .

وتذكيري بآيات الله : ووعظي إيّاكم بحجج الله[3] .

فعلى الله توكّلت : إن عزمتم على قتلي أو طردي من بين أظهركم فعلى الله اتّكالي وبه ثقتي وهو سندي وظهري[4] فإنّي لا أبالي ولا أكفّ عنكم سواء عظم عليكم أو لا[5] .

فأجمعوا أمركم وشركاءكم : فأعدّوا أمركم واعزموا على ما تقدمون عليه في أمري . يقال منه : أجمعت على كذا بمعنى عزمت عليه[6] واعزموا على أمرٍ تفعلونه بي . والواو بمعنى مع[7] - وقيل إنّ المعنى : أحكموا أمركم وادعوا شركاءكم . ونصب قوله : وشركاءكم بفعلٍ مضمرٍ له وذلك : وادعوا شركاءكم[8] .

غمّة : ملتبساً مشكلاً مبهماً[9] مستوراً[10] .

ثمّ اقضوا إليّ : ثمّ امضوا فيما أردتموه[11] .

ولا تُنظِرون : ولا تؤخّرون[12] ولا تمهلون فإنّي ليست مبالياً بكم[13] .

ما أقوى الشّبه بين موقف الكافرين من قوم نوحٍ عليه السّلام أوّل رسل الله تعالى وبين موقف الكافرين من قوم محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . وإذا كان

---

(١) تفسير الطبري ٩٨/١١ .
(٢) تفسير الطبري ٩٨/١١ .
(٣) تفسير الطبري ٩٨/١١ .
(٤) انظر تفسير الطبري ٩٨/١١ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤٢٥/٢ .
(٦) تفسير الطبري ٩٨/١١ .
(٧) الجلالين .
(٨) تفسير الطبري ٩٩/١١ وانظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ١٦٤ .
(٩) تفسير الطبري ٩٩/١١ .
(١٠) الجلالين .
(١١) الجلالين .
(١٢) تفسير الطبري ٩٩/١١ .
(١٣) الجلالين .

مصير قوم نوح عليه السّلام الغرق فإنّ مصير قوم محمد بن عبد الله ﷺ شبيه بذلك المصير إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً .

إن الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقصّ على كفّار مكّة نبأ نوح عليه السّلام مع قومه الكافرين . إنّه عليه السّلام قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي بين ظهرانَيْكُمْ ، وعظم عليكم دعوتي لكم إلى صراط العزيز الحميد ، وكبر عليكم تذكيري لكم بآيات الله تعالى الدّالة على العلم المحيط والقدرة المطلقة ، فإنّي على الله تعالى وحده لا شريك له توكّلت في مواصلة تبليغ رسالة ربّي ، وتأدية الأمانة التي ائتمنني الله تعالى عليها . أمّا أنتم فأجمعوا أمركم ، واعزموا على ما تقدمون عليه من أمري ، وادعوا شركاءكم الذين يرون رأيكم ويأخذون بأيديكم ويكيدون كيدكم ، ثمّ لا يكن أمركم عليكم غمّةً في حقّي ، ولا مستوراً في شأني ، بل ظاهراً وواضحاً ، ثمّ امضوا فيما أردتموه بشأني من قتلٍ أو إخراج أو أسر ، ولا تتردّدوا في أمري ولا تنظروني ولا تمهلون !

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

جاء في الآية الكريمة السّابقة على لسان نوح عليه السّلام أنّه سيواصل تبليغ رسالته مهما يكن الموقف الذي يتّخذه قومه منه . وفي هذه الآية الكريمة التّالية يواصل نوحٌ عليه السّلام قوله ويجيء على لسانه أنّه يخبر قومه بأنّهم إن أعرضوا عن دعوته لهم إلى صراط العزيز الحميد فإنه ما سألهم على عمله العظيم من أجر ، لأنّ أجره على الله تعالى وحده لا شريك له . وفي مقابل إشراك قومه هو يقول لهم إنّ الله سبحانه وتعالى أمره بأن يكون من المسلمين لله تعالى ربّ العالمين ، الذين خضعت لله عزّ وجلّ رقابهم ، وذلّت نفوسهم ، وأذعنوا لمشيئة الله تعالى المطلقة .

ومن البيّن أنّ ربّ العزّة بعث كلّ المرسلين والنّبيّين بدين الإسلام لله ربّ العالمين ، وأمر بإفراده جلّ وعلا بالعبادة ، ابتداءً بنوح عليه السّلام ، وانتهاءً بمحمد بن عبد الله ﷺ . إنّ الغاية ، وهي توحيد الله تعالى ، واحدة وإن اختلفت السّبل الموصلة إلى تلك الغاية الحميدة وتعدّدت الطّرق ، وقد قال تعالى[1] : ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ﴾ والشّرعة الطّريق الذي يشرع في سلوك أوّله ، والمنهاج هو السّبيل الواسع المعبّد المطروق .

---

(١) سورة المائدة ٤٨ .

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

في الفلك : في السّفينة[1] .

وجعلناهم خلائف : جمع خليفة[2] وجعلنا الذين نجّينا مع نوحٍ في السّفينة خلائف في الأرض من قومه الذين كذّبوه[3].

أصرّ قوم نوح عليه السّلام على كفرهم رغم وعظهم وتذكيرهم بآيات الله تعالى فنجّى الله تعالى نوحاً عليه السّلام ومن معه من المؤمنين في السّفينة وجعل الله تعالى أولئك المؤمنين خلائف الكافرين الذين أغرقهم الله تعالى بالطّوفان بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى التي آتاها عزّ وجلّ نوحاً عليه السّلام .

وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن ينظر بعين البصيرة كيف كان عاقبة المنذرين من الكافرين . وإنّ كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّديّة تبعٌ له عليه الصّلاة والسّلام في هذا الأمر .

وليس بخافٍ أنّنا بصدد تسليةٍ للمصطفى ﷺ من ناحية ، وتحذير لكفّار مكّة من المصير ذاته إذا استمرّوا على تكذيبهم من ناحيةٍ أخرى .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل : فما كانوا ليصدّقوا بما جاءتهم به رسلهم بما كذّب به قوم نوحٍ ومن قبلهم من الأمم الخالية من قبلهم[4] .

ما أكثر المرسلين والنّبيّين الذين بعثهم الله تعالى بعد نوحٍ عليه السّلام ، مروراً بموسى عليه السّلام ، كبير أنبياء بني إسرائيل ، وعيسى عليه السّلام ، آخر أنبياء بني إسرائيل ،

---

(١) تفسير الطبري ١١/١٠٠ .
(٢) الجلالين في تفسير الآية الكريمة رقم ١٤ .
(٣) تفسير الطبري ١١/١٠٠ .
(٤) تفسير الطبري ١١/١٠٠ .

وانتهاءً بمحمد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه . وإنّ الآية الكريمة تشير إلى أقوام أولئك النّبيّين والمرسلين قبل موسى وهارون عليهما السّلام .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أن الله سبحانه وتعالى بعث بعد نوحٍ عليه السّلام وبعد خروج قومه بمرور الوقت عن الصّراط المستقيم ، بعث رسلاً إلى أقوامهم فجاءوهم بالآيات البيّنات والحجج الواضحات فما كانت تلك الأقوام لتؤمن بما كذّب به قوم نوحٍ عليه السّلام من قبل . إنّ الله سبحانه وتعالى طبع على قوم نوحٍ عليه السّلام المعتدين وأخذهم بالغرق أخذ عزيز مقتدر . وإنّ مثل هذا الطّبع على القلوب والأخذ بالعذاب الأليم سيكون من نصيب كفّار مكّة إن لم يتداركوا الأمر قبل فوات أوانه .

« بَعْثُ الله تعالى موسى وهارون عليهما السّلام
إلى فرعون وملئه وتكذيبهم وإغراقهم ،
وإنجاء الله تعالى المؤمنين الصّادقين »
الآيات (٧٥ ــ ٩٣)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

تقرّر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى بعث بعد نوح عليه السّلام والمرسلين من بعده موسى وهارون ابني عمران عليهما السّلام إلى فرعون مصر وأشراف قومه بآيات الله تعالى التّسع البيّنات والحجج الباهرات فاستكبروا عن قبول الحقّ وكانوا قوماً مجرمين بإصرارهم على الكفر والإيذاء .

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

تقرّر الآية الكريمة الأولى أن فرعون وملأه لمّا جاءهم الحقّ من عند الله تعالى متمثّلاً في آيات موسى عليه السّلام التّسع التي أيقنت أنفسهم أنّها من عند الله تعالى جحدوا بها وقالوا إنّ هذا لسحر مبين من نوع السّحر الواضح الذي يجيء به السّحرة . جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّمل[1] : ﴿ فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ موسى عليه السّلام سأل القوم منكراً عليهم : أتقولون للحقّ من الله تعالى لمّا جاءكم فعلاً إنّ هذا لسحرٌ مبين وهو الحقّ الذي أفلح مع السّاحرين الذين سجدوا مؤمنين لله ربّ العالمين ، ربّ موسى وهارون عليهما السّلام . واستمرّ موسى عليه السّلام في سؤاله الإنكاري : أسحرٌ هذا وقد أفلح كما تبيّنتم ولا يُفْلح السّاحرون ولا ينجحون ولا يوفّقهم الله تعالى ؟

---

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ .

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

لتلفتنا : لتصرفنا وتلوينا[١] وتثنينا[٢] وتردّنا[٣] .

الكبرياء : العظمة[٤] والرّياسة[٥] والملك[٦] .

قال فرعون وملؤه لموسى عليه السّلام أجئتنا يا موسى ووصلت إلينا فعلاً لتصرفنا عمّا وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأوثان وتردّنا إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وتكون لك ولأخيك هارون الكبرياء في الأرض والعظمة والسّلطان . والاستفهام للإنكار . ويؤكّد القوم أنّهم ليسوا بمؤمنين لموسى وأخيه هارون عليهما السّلام وبرسالة التّوحيد التي بعثهما الله تعالى بها .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ويحقّ الله الحقّ بكلماته : ويثبت الله الحقّ الذي جئتكم به من عنده فيعليه على باطلكم ويصحّحه بكلماته يعني بأمره[٧] ويظهره بمواعيده[٨] .

تبيّن الآية الكريمة الأولى أنّ فرعون قال لملئه وحاشيته وأمرهم أن يأتوه بكلّ ساحرٍ عليم فائقٍ في علم السّحر . ولمّا كانت جملة : « أتى » تُسْتَعْمَل في القرآن الكريم دليلاً على البُعْد المكانيّ والزّمانيّ والنّفسيّ وكانت هنا تفيد البعد المكانيّ كان في ذلك الدّليل على أنّ فرعون طلب السّحرة أن يأتوه من سائر أنحاء مصر .

(١) تفسير الطبري ١٠١/١١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٦/٢ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير الطبري ١٠١/١١ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤٢٦/٢ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير الطبري ١٠٣/١١ .
(٨) الجلالين .

وتبيّن الآية الكريمة الثّانية أنّ السّحرة لمّا جاءوا ووصلوا فعلاً ، ويلاحظ استعمال جملة « جاء » هنا التي تدلّ على القرب بعكس جملة « أتى » قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . والكلام بطبيعة الحال على الحذف فإنّ حواراً ساخناً تمّ بين فرعون والسّحرة ، وكان وعدٌ منه لهم بالمال الكثير إذا غلبوا موسى وهارون عليهما السّلام وبالمنصب العظيم . كما أنّ حواراً ساخناً مماثلاً كان بين السّحرة وبين موسى عليه السّلام انتهى بتعيين ضحى يوم الزّينة والعيد موعداً للمواجهة بين موسى عليه السّلام وبين السّحرة ، وكان الاتفاق أن يلقي السّحرة أوّلاً حبالهم وعصيهم وأن يلقي موسى عليه السّلام آخراً عصاه . وبسبب الحذف الكثير الذي دلّ عليه المذكور نذكر بعض آيات الذّكر الحكيم التي أشارت إلى هذا المحذوف . ولتكن الآيات الكريمات من سورة طه . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ ولقد أريناه آياتِنا كلَّها فكذَّب وأبى . قال أجئتنا لتُخْرِجنا مِنْ أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينّك بسحرٍ مثله فاجعل بيننا وبينك مَوْعداً لا نُخْلِفُهُ نحن ولا أنت مكاناً سُوًى . قال مَوْعِدُكُمْ يوْمُ الزِّينة وأن يُحْشَرَ النَّاس ضُحًى . فتولّى فرعون فجمع كيده ثمّ أتى . قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيُسْحِتَكُمْ بعذابٍ وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النّجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثْلَى . فأجْمِعوا كيدكم ثمّ ائتوا صفًّا وقد أفلح اليوم من اسْتَعْلَى . قالوا يا موسى إمّا أن تُلْقِي وإمّا أن نكون أوّلَ من ألْقَى . قال بل ألقُوا فإذا حبالهم وعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إليه مِنْ سحرهم أنّها تَسْعَى . فأوجس في نفسه خِيفةً موسى . قُلْنا لا تَخَفْ إنّك أنت الأَعْلَى . وألْقِ ما في يمينك تَلْقَفْ ما صنعوا إنّما صنعوا كَيْدُ سَاحِرٍ ولا يُفْلِحُ السَّاحر حيث أتى . فأُلْقِي السّحرة سُجَّداً قالوا آمنّا بربّ هارونَ وموسى ﴾ .

والآية الكريمة الثّالثة تبيّن أنّ السّحرة حينما ألقوا حبالهم وعصيّهم قال لهم موسى عليه السّلام : الذي جئتم به السّحر ، وهو لا يرضى الله تعالى عنه . إنّ الله سبحانه وتعالى سيبطله بقدرته ، وإنّ الله سبحانه وتعالى لا يصلح عمل المفسدين ولا يسدّده ولا يباركه .

والآية الكريمة الرّابعة تؤكّد فحوى الآية الكريمة الثّالثة فتبيّن أنّ موسى عليه السّلام استمرّ في حديثه مع السّحرة وإرشاده وتحذيره لهم قائلاً : إنّ الله سبحانه وتعالى كما يبطل السّحر ولا يصلح عمل المفسدين من السّحرة وسواهم يحقّ الحقّ بكلماته ، ويثبّته بأمره ، ويظهره بمواعيده ، ولو كره المجرمون من أمثال فرعون وآله والقوم الكافرين أجمعين .

---

(١) سورة طه ٥٦ ــ ٧٠ .

ويبدو من آيات سورة طه أنّ هنالك معاني محذوفةً دلّ عليها السّياق في هذا الموضع وفي غيره من المواضع في القرآن التي ذُكِرَت فيها هذه الحوادث وما أكثر تلك المواضع .

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

اختلف العلماء في عودة الضّمير من القول : « من قومه » فمنهم من ذهب إلى أنّه يعود إلى موسى باعتباره أقرب مذكور ، ومنهم من ذهب إلى أنّه يعود إلى فرعون . وكلا الرّأيين جائز .

ونحن نودّ أن نبيّن المعنى في حال عودة الضّمير إلى موسى عليه السّلام أوّلاً وإلى فرعون آخراً .

إنّ الضّمير إذا عاد إلى موسى عليه السّلام يصحّ أن يكون المعنى على النّحو التّالي : فما آمن لموسى عليه السّلام إلّا ذرّيّة من قومه عليه السّلام من بني إسرائيل وإلّا فئةٌ من الشّباب الذي ربّاه موسى عليه السّلام علي عينه . إنّ هذا الشّباب الواعد المؤمن آمن بموسى عليه السّلام على خوفٍ من فرعون الطّاغي الباغي ، أن يفتنهم عن دينهم ، ويسومهم سوء العذاب ، وعلى خوف من ملئهم وكبرائهم من بني إسرائيل ، الذين تمكّن منهم الذّل ، واستبدّ بهم القهر ، واستمرءوا الظّلم ، والذين يخشون على ذرّيّتهم لو أعلنوا انضمامهم إلى موسى عليه السّلام ضدّ فرعون وتمكّن منهم فرعون أن يسومهم سوء العذاب . إنّ الخوف من فرعون أن يفتنهم عن دينهم . وإنّ الخوف من ملئهم أن يصرفوهم عن البذل والتّضحية والفداء بالانضمام إلى موسى عليه السّلام . وإنّ لنا على هذا الرّأي دليلاً من القرآن الكريم . إنّ بني إسرائيل قوم موسى عليه السّلام الذين سامهم فرعون الخسف جبنوا عن دخول مدينة الجبّارين فكتب الله تعالى عليهم أن يتيهوا في شبه جزيرة سَيْناء أربعين سنة . وفي هذه الأثناء مات هارون وموسى عليهما السّلام وكلّ الجيل الذي سامه فرعون الخسف ، وجاء الجيل الجديد الذي دخل مدينة الجبّارين بقيادة يوشع بن نون عليه السّلام[1] وإلى هذه الأمور أشارت الآيات الكريمات ٢٠ ـ ٢٦ من سورة المائدة .

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٤٣١/٢ .

والآية الكريمة تؤكّد أن فرعون عالٍ في الأرض ومستكبرٌ فيها وأنّه من المسرفين المتجاوزين الحدود في ارتكاب الذّنوب والآثام .

وإنّ الضّمير إذا عاد إلى فرعون يصحّ أن يكون المعنى على النّحو التّالي : فما آمن لموسى عليه السّلام إلّا ذرّيّة من قوم فرعون ، والمعروف أنّ هناك من آمن بموسى عليه السّلام من غير بني إسرائيل الذين كانوا جميعاً مؤمنين بموسى عليه السّلام ، ومن هؤلاء امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون[1] فما آمن لموسى عليه السّلام إلّا ذرّيّة من قوم فرعون على خوف من فرعون الطّاغية أن يفتنهم عن دينهم ومن ملئهم وأشرافهم أن يعيدوهم في ملّتهم ويعينوا فرعون الطّاغية على ظلمه وعدوانه .

وإنّ الدّرس العظيم الذي تلقيه علينا الآية الكريمة هو المتعلّق بالشّباب ، نصف الحاضر وكلّ المستقبل . إنّ هذا الشّباب من قوم موسى عليه السّلام أو من قوم فرعون حينما آمن قام بالأعمال البطوليّة التي تحتاج إلى البذل والتّضحية والفداء . وإنّ هذا درسٌ لنا نحن المسلمين في وجوب الاهتمام بالشّباب وتنشئتهم التّنشئة الإسلامية كي يعيدوا مجد الإسلام . وهل الإسلام في فجره إلّا حركة شباب ؟

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

على الرّغم من ثبوت الحجّة على فرعون وملئه بانهزام السّحرة أمامه وبإيمانهم بموسى وهارون عليهما السّلام مهما يكن عذاب فرعون أليماً ابتغاء مرضاة الله تعالى فإنّ فرعون أصرّ على علوّه في الأرض وإسرافه ، وعلى تقتيل الذّكور من أطفال بني إسرائيل واستحياء النّساء . وإنّ الآيات الكريمات الثّلاث التي نحن بصددها تصوّر ما كان بين موسى عليه السّلام وقومه من بني إسرائيل في هذا الشّأن .

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ موسى عليه السّلام يقول لقومه بني إسرائيل شادًّا من أزرهم تجاه بطش فروعون وآله : يا قوم ، إن كنتم آمنتم بالله تعالى ربًّا وواحداً أحداً فرداً صمداً

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٤٢٧/٢ .

فعليه توكّلوا واستندوا واعتمدوا إن كنتم مسلمين لله تعالى ربّ العالمين مذعنين لمشيئته خاضعين لإرادته . إنّ هذا الذي يصيبكم من فرعون وملئه إنّما يتمّ بعلمٍ من الله تعالى علّام الغيوب الكبير المتعال .

وإنّ الآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ قوم موسى عليه السّلام استجابوا لندائه عليه السّلام وها هم أولاء يعبّرون عن إيمانهم العميق وإسلامهم الصّادق بإعلانهم التّوكّل على الله تعالى الواحد الأحد ، وربّهم المنعم عليهم الذي ربّاهم بنعمه وآلائه . وإنّهم ليسألون هذا الرّبّ العظيم الذي طوّق أعناقهم بنعمه العظيمة وآلائه الجسيمة ألّا يجعلهم فتنةً للقوم الظّالمين ، وألّا يمكّن أعداء الله تعالى من إيصال الأذى إليهم ، فيسبق إلى رُوع الظّالمين أنّهم على الحقّ وأنّ المؤمنين على الباطل ، بدليل أنّهم يسومون قوم موسى المؤمنين من بني إسرائيل الخسف ، ويذيقونهم صنوف الذّلّ والهوان . ومن البيّن أنّ الدّعاء يعني صرف العذاب عنهم بإرادة الله تعالى .

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة التي يواصل فيها بنو إسرائيل دعاء ربّهم جلّ وعلا تتجاوز مرحلة صرف العذاب إلى مرحلة جلب رحمة العزيز الوهّاب . إنّ بني إسرائيل يسألون الله تعالى أن ينجّيهم برحمته جلّ وعلا ، وأن ينقذهم من القوم الكافرين ، فرعون وملئه .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً : وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتّخذا بمصر بيوتاً . يقال منه : تبوّأ فلانٌ لنفسه بيتاً إذا اتّخذه ، وكذلك تبوّأ مصحفاً إذا اتّخذه . وبوّأته أنا بيتاً إذا اتّخذته له[1] .

واجعلوا بيوتكم قبلة : واجعلوا بيوتكم مساجد تصلّون فيها[2] .

أشار المفسّرون[3] إلى أنّ فرعون منع بني إسرائيل من الصّلاة في كنائسهم تماديا منه

(١) تفسير الطبري ١٠٦/١١ .
(٢) تفسير الطبري ١٠٦/١١ .
(٣) انظر مثلاً تفسير القرطبي ٣٢١٠ وتفسير ابن عطية ٢٠٣/٧ وتفسير ابن كثير ٤٢٨/٢ وتفسير الطبري ١٠٦/١١ .

في إيذائهم فأوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السّلام أن يتّخذا لقومهما بمصر بيوتاً يعبدون الله تعالى فيها بدلاً من الكنائس العامّة ، وأن يجعلوا بيوتهم قبلةً يؤمّها العابدون وكنائس يقصدها المصلّون ، وأمرهم بالمحافظة على الصّلاة وإقامتها على خير وجه . وتبشّر الآية الكريمة أخيراً المؤمنين حقّاً بزوال الهمّ وكشف السّوء وبالنّصر المؤزّر .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۙ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

امتثل موسى وهارون عليهما السّلام وبنو إسرائيل أوامر الله تعالى لهم بإخلاص العبادة لله تعالى وبخاصّة إقام الصّلاة عماد الدّين . وكان من موسى وهارون عليهما السّلام أخيراً دعاءٌ على فرعون وملئه وكان منه جلّ وعلا إجابة دعائهما . وإن الآيتين الكريمتين تشيران على التّوالي إلى الدّعاء وإلى الإجابة .

إنّ الآية الكريمة الأولى تبيّن أنّ موسى عليه السّلام دعا ربّه جلّ وعلا مربّيه بنعمه وآلائه وناداه بأنّه جلّ وعلا قد أعطى فرعون وأشراف قومه زينةً ورياشاً ، كما أعطاهم مالاً لا يُحْصى كثرةً في هذه الحياة الدّنيا . إنّ الله تعالى ربّ العالمين أعطى فرعون وملأه الزّينة الجميلة والأموال الطّائلة من أجل الشّكر لله تعالى وليس من أجل الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى وإضلال الآخرين عن سواء السّبيل . ولهذا تسمّى هذه اللّام في القول : « ليضلّوا » لام العاقبة[1] لأنّ العاقبة مخالفةٌ للسّبب ومناقضةٌ للعلّة . إنّ الهدف من إيتاء الزّينة والمال الشّكر ولكنّ عاقبة حصول فرعون وملئه على المال كان الكفران .

أما وقد وصلت دعوة موسى عليه السّلام فرعون إلى طريقٍ مسدود فقد كان من موسى عليه السّلام دعاءٌ على فرعون وملئه ، وتأمينٌ من هارون عليه السّلام . لقد دعا موسى عليه

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/١٦٠ .

السّلام الله تعالى أن يطمس على أموال فرعون وملئه . قال ابن عبّاس ومجاهد أي أهلكها[1] وأن يشدد على قلوبهم ويطبع عليها[2] فلا يخرج ما فيها من كفرٍ حتّى يروا العذاب الأليم الذي كان بالغرق .

وإنّ الآية الكريمة الثّانية تقرّر أن ربّ العزّة قال لموسى وهارون عليهما السّلام إنّ دعوتهما قد استجابها الله تعالى فعليهما أن يستقيما في طريقهما المستقيم وألّا يتّبعا سبيل الذين لا يعلمون أنّ الله تعالى خلقهم من أجل عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له وأنّ إمهال الله تعالى لهم ليس إهمالاً .

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

وجاوزنا ببني إسرائيل البحر : وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتّى جاوزوه[3] .

فأتبعهم فرعون وجنوده : فتبعهم فرعون وجنوده . يقال منه : أتبعته وتبعته بمعنًى واحد[4] .

آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين : آلآن تقرّ بالعبوديّة ، وتستسلم له بالذّلّة ، وتخلص له الألوهة ، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك فأسخطته على نفسك ، وكنت من المفسدين في الأرض ، الصّادّين عن سبيله[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٩/٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٠٩/١١ وتفسير ابن كثير ٤٢٩/٢ .

(٣) تفسير الطبري ١١١/١١ .

(٤) تفسير الطبري ١١١/١١ .

(٥) تفسير الطبري ١١١/١١ وانظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٣٩٨ .

فاليوم ننجّيك ببدنك : فاليوم نجعلك على نجوةٍ من الأرض ببدنك ينظر إليك هالكاً من كذّب بهلاكك[1] والنّجوة : الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض . ومنه قول أوس بن حجر :

فمن بعَقْوته كمن بنجوته والمستكنّ كمن يمشي بقراوح[2]

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قطع ببني إسرائيل بحر القُلْزُم الذي يسمّى حالياً البحر الأحمر آيةً من آيات الله تعالى البيّنات دليلاً على أنّ موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين فتبعهم فرعون وجنوده بغياً وطغياناً وعدواناً بدلاً من أن يتّعظ فرعون وملؤه وجنوده بهذه المعجزة الكبرى لموسى عليه السّلام . ومن البدهيّ أنّ ثمّة الكثير من الكلام المحذوف الذي دلّ عليه الكلام المذكور . ومن الآيات الكريمات التي تحدّثت في هذا المعنى هذه الآيات الكريمات من سورة الشّعراء[3] : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي إنّكم مُتَّبَعون . فَأَرْسَلَ فرعون في المدائن حاشرين . إنّ هؤلاء لشِرْذِمةٌ قليلون . وإنّهم لنا لغائظون . وإنّا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون . وكنوزٍ ومَقامٍ كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلمّا تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لَمُدْرَكُون . قال كلّا إنّ مَعِيَ ربّي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فِرْقٍ كالطّود العظيم . وأزلفنا ثَمَّ الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثمّ أغرقنا الآخرين . إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم ﴾ .

وحينما أدرك الغرق فرعون قال بعد فوات الأوان : « آمنت أنّه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » .

ولم ينفع فرعونَ إسلامه لله ربّ العالمين ساعة الموت والغرق . وإنّ الآية الكريمة الثّانية تبيّن السّؤال الإنكاريّ التقريعيّ الذي أُلقِي على فرعون وقد ضاق الصّدر بالرّوح : آلآن تؤمن وقد كفرت من قبل وصددت عن سبيل الله تعالى وكنت من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . وقد جاء في هذا المعنى قوله تعالى في سورة غافر[4] : ﴿ فلمّا رأوا بأسنا قالوا

---

(١) تفسير الطبري ١١/١١١ .

(٢) تفسير الطبري ١١/١١١ والعَقْوة : الأرض المنخفضة يقال : عقا عقواً إذا احتفر البئر فأنبط من جانبها . انظر القاموس . والقراوح : الأرض المستوية . وانظر ديوان أوس بن حجر ١٦ تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم . بيروت ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م .

(٣) الآيات ٥٢ ـ ٦٨ .

(٤) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

آمنّا بالله وَحْدَه وكفرنا بما كنّا به مشركين . فلم يَكُ ينفعهم إيمانهم لمّا رأَوْا بأسَنا . سُنَّةَ الله التي قد خَلَتْ في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

والآية الكريمة الثّالثة تسخر من فرعون الطّاغية وتحذّر الطّغاة في كلّ زمانٍ ومكان . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة أراد أن ينجّي فرعون ببدنه وحده وليس بروحه وذلك بإلقائه على أرضٍ مرتفعة بالقرب من البحر كي يكون فرعون الذي ألقى البحر بجسده كاملاً غير منقوصٍ بإرادة الله تعالى ، وما أكثر القروش المفترسة في البحر الأحمر ، كي يكون فرعون لمن خلفه آيةً على قدرة الله تعالى في أخذ الطّغاة بالعذاب الشّديد وفي الفعل سبحانه وتعالى لما يريد .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ كثيراً من النّاس عن آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة غافلون . فهل يفيقون كما أفاق فرعون الطّاغية على العذاب الأليم . ولكنّ ذلك لم ينفع فرعون ولم ينفع الظّالمين من أمثاله .

وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال البخاريّ .... عن ابن عبّاس قال : قدم النّبيّ ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ فقالوا : هذا يومٌ ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النّبيّ ﷺ لأصحابه : أنتم أحقّ بموسى منهم فصوموه[1] .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

ولقد بوّأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق : ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل صدق . قيل : عنى بذلك الشّام وبيت المقدس . وقيل : عنى به الشّام ومصر[2] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل بني إسرائيل منازل صدقٍ ورزقهم من الطّيّبات ومن حلال الرّزق فما اختلفوا فيما بينهم حتّى جاءهم العلم الصّحيح من الله تعالى . وبشأن منازل الصّدق التي أنزل الله تعالى فيها بني إسرائيل هي أرض الشّام التي باركها معنويًّا بإرسال المرسلين والنّبيّين ، وماديًّا فقد باركها الله تعالى بالخيرات . ويصحّ أن

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٣١ .

(٢) تفسير الطبري ١١/١١٤ .

يشمل الإنزال وراء أرض الشّام أرض مصر التي كان فيها بنو إسرائيل بعد أن دمّر الله تعالى فرعون وملأه تدميراً . وقد جاء في سورة الشعراء[1] قوله تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون . وكنوزٍ ومقامٍ كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ ويُفْهَمُ من هذه الآيات الكريمات وأمثالها أنّ بعض بني إسرائيل لم يخرجوا مع موسى عليه السّلام لسبب أو لآخر . وبشأن البركة في أرض الشّام جاء قوله تعالى في سورة الإسراء[2] : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنّه هو السّميع البصير ﴾ .

ومن القضايا التي اختلف فيها بنو إسرائيل من بعد ما جاءهم العلم الصّحيح من الحقّ جلّ وعلا نبوّة محمد بن عبد الله ﷺ . لقد كان بنو إسرائيل مجمعين على انتظار خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين كما جاء في التّوراة ، وكانوا يظنّون أنّ هذا النّبيّ الخاتم من بني إسرائيل فلمّا بعثه الله تعالى من العرب وليس من بني إسرائيل كفروا به عليه الصّلاة والسّلام وأخفوا نعته وأوّلوا نصوص التّوراة وفق أهوائهم .

إنّ الآية الكريمة تقرّر في التّذييل أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ويثيب المحسن ويعاقب المسيء .

---

(١) الآيات ٥٧ ــ ٥٩ .

(٢) الآية ١ .

« تسلية المصطفى ﷺ وتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين »
الآيات (٩٤ ــ ١٠٣)

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

تبيّن من الآية الكريمة السّابقة في آخر القسم السّابق أنّ بني إسرائيل لم يختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، وأنهم كانوا متّفقين على بعث خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وكانوا يظنّون أنّه من بني إسرائيل . فلما بعث الله تعالى محمد بن عبد الله ﷺ من العرب كفروا به . إنّ الآية الكريمة التي نحن بصددها تأخذ بسبب من هذا المعنى فتخاطب المصطفى ﷺ وتقول له : إن كنت يا محمّد في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك في شأن نعتك الموجود لدى بني إسرائيل في التّوراة ، وكذلك في الإنجيل ، فاسأل الذين يقرأون التّوراة والإنجيل من الذين يعاصرونك من اليهود والنّصارى ، واسأل الصّادقين المنصفين منهم عن ذلك . قال قتادة بن دعامة : بلغنا أنّ رسول الله ﷺ قال : لا أشكّ ولا أسأل . وكذا قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير والحسن البصري . وهذا فيه تثبيتٌ للأمّة وإعلامٌ لهم أنّ صفة نبيّهم ﷺ موجودةٌ في الكتب المتقدّمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى : الذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل[1] .

والآية الكريمة تؤكّد للمصطفى ﷺ أنّه قد جاءه الحقّ من ربّه جلّ وعلا فلا يكوننّ من الشّاكّين . وقد عرفنا أنّ المصطفى ﷺ ما شكّ وما سأل .

والآية الكريمة الثّانية تؤكّد فحوى الآية الكريمة الأولى التي نهته عليه الصّلاة والسّلام أن يكون من الممترين . إنّ الآية الكريمة تنهاه عليه الصّلاة والسّلام أن يكون من الذين كذّبوا بآيات الله تعالى فيكون من الخاسرين . وفي الآية الكريمة دليل على أن الذين كذّبوا بآيات الله تعالى هم الخاسرون . إنّ المصطفى ﷺ ما شكّ وما سأل بل صدّق كلّ ما أوحى الله تعالى به إليه ، وهذه هي صفة كلّ مؤمن .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٢/٢ وانظر تفسير الطبري ١١٦/١١ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

حقّت عليهم كلمة ربّك : وجبت عليهم يا محمّد كلمة ربّك[1] بالعذاب[2] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الذين وجبت عليهم كلمة الله تعالى بالعذاب لا يؤمنون ، كما تقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ أولئك لا يؤمنون ولو جاءتهم فعلاً كلّ آيةٍ على غرار آيات موسى عليه السّلام التّسع حتّى يروا العذاب الأليم الذي رآه فرعون وهو يغرق فلم ينفعه الإيمان بعد فوات الأوان .

وتفسير ذلك أنّ ربّ العزّة يرسل رسله وأنبياءه ، ويؤيّدهم بآياته ومعجزاته ، ولا يؤمن كثيرٌ من أقوامهم بكلّ تلك الآيات البيّنات بل يقترحون المزيد من الآيات من باب التّعنّت وليس بسبب قصور الحجّة . أما وقد اختار القوم بمحض إرادتهم العمى على الهدى ، على غرار ثمود قوم صالح عليه السّلام الذين قال الله تعالى عنهم في محكم كتابه[3] : ﴿ وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهُون بما كانوا يكسبون . ونجّينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾ أما وقد اختار القوم العمى على الهدى فقد زادهم الله تعالى عمًى إلى عماهم والعياذ بالله . وبشأن الأمم السّابقة على الأمّة المحمّديّة شاء الله تعالى إذا حقّق لها الآيات التي اقترحت ولم تؤمن أن يأخذها أخذ عزيزٍ مقتدر . وهكذا تحقّ كلمة الله تعالى بعذاب الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى كفرعون وملئه ، وبعذاب الذين لا يؤمنون بالآيات التي اقترحوها واستجاب الله تعالى لهم . والمعروف أنّ الإيمان لحظة وقوع العذاب غير مقبولٍ وغير نافع .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ
ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

شاء الله سبحانه وتعالى أن يبعث رسله وأنبياءه رجالاً من أهل القرى أو المدن وليس

---

(١) تفسير الطبري ١١/١١٦ .
(٢) الجلالين .
(٣) سورة فصلت ١٧ .

من الأعراب أهل البادية لأنّ أهل القرى لديهم استعداد للفهم وقبول تعاليم السّماء بعكس الأعراب الأشدّ كفراً ونفاقاً والأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله تعالى على رسوله بنصّ القرآن الكريم . والآية الكريمة تحثّ سكّان القرى على الإيمان برسل الله تعالى إليهم قبل حلول العذاب وفوات الأوان وتقول : هلّا كان ثمّة أهل قرية آمنوا برسول الله تعالى إليهم فنفعهم إيمانهم فإنّ سنّة الله تعالى قد اقتضت ألّا ينفع أهل قرية إيمانهم وقت حلول العذاب إلّا قوم يونس بن مَتّى عليه السّلام[1] أهل نينوى بأرض المَوْصل[2] فقد شاء الله تعالى أن يُسْتَثْنَوْا من هذه القاعدة وأن تنفعهم التّوبة إلى الله تعالى حينما رأوا طلائع العذاب بعد خروج رسولهم من بين أظهرهم[3] يونس عليه السّلام الذي سمّيت السّورة الكريمة باسمه عليه الصّلاة والسّلام . إنّ الله سبحانه وتعالى كشف عن قوم يونس عليه السّلام عذاب الخزي والذّلّ والهوان في الحياة الدّنيا ومتّعهم إلى حين انقضاء آجالهم ومفارقتهم هذه الحياة الأولى .

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

ويجعل الرّجس : العذاب وغضب الله[4] .

كان المصطفى ﷺ حريصاً على إيمان كلّ قومه به عليه الصّلاة والسّلام حتّى كاد يهلك نفسه لفرط حرصه على ذلك ، وقد نهاه القرآن الكريم في أكثر من موضع عن قتل نفسه بسبب الحزن لانصراف القوم عن دعوته عليه الصّلاة والسّلام . وإنّ الآية الكريمة الأولى لتأخذ بسبب من هذه المعاني فتقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لآمن مَنْ في الأرض كلّهم جميعاً وليس أهل مكة وحدهم ، وليس عرب الجزيرة وحدهم . وانظر إلى معنى الشّمول الذي يستفاد من القول : « كلّهم جميعاً » وإن للكلام بقيّة ، والمعنى : ولكنّ الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل النّاس كلّهم أمّةً واحدة مسلمة لله ربّ العالمين . بل إنّ ربّ العزّة بشأن أتباع

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٣٣ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٣٣ .
(٤) تفسير الطبري ١١/١٢٠ .

الأديان السّماويّة شاء أن يجعل لكلّ أمّة شِرْعةً ومنهاجاً . قال تعالى[1] : ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومِنْهَاجاً ﴾ .

وفي سبيل تنبيه المصطفى ﷺ إلى رسالته وإلى ما يلزمه القيام به عليه الصّلاة والسّلام وهو البلاغ وليس الإكراه على الهداية والدّخول في الدّين الإسلاميّ تسأل الآية الكريمة المصطفى ﷺ بالقول : « أفأنت تُكْره النّاس حتّى يكونوا مؤمنين » .

وتجيب الآية الكريمة على السّؤال المطروح على المصطفى ﷺ بقصد تسليته عليه الصّلاة والسّلام والتّسرية عنه فتقرّر أنّه ما كان لنفس من النّفوس وما ينبغي لها ولا يصحّ منها أن تؤمن إلّا بإذن الله تعالى الذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً . وهنا نستذكر قوله عزّ من قائل في سورة العنكبوت[2] : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا . وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ أمّا الذين لا يستعملون نعمة العقل استعمالاً صحيحاً ولا يؤمنون فإنّ الله سبحانه وتعالى يزيدهم رجساً إلى رجسهم وسيكون من نصيبهم العذاب الشّديد والغضب الأكيد . وهنا نستذكر أيضاً قوله عزّ من قائل في سورة الأنعام[3] : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يُضِلّه يجعل صدره ضيّقاً حَرَجاً كأنّما يصّعّد في السّماء . كذلك يجعل الله الرِّجس على الذين لا يؤمنون ﴾ وليس بخافٍ وجه الشّبه بين التّذييل في الآية الكريمة والتّذييل في الآية الكريمة من سورة يونس .

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

فهل ينتظرون إلّا مِثْل أيّام الذين خَلَوْا مِنْ قبلهم : الأيّام هنا بمعنى الوقائع ، يقال : فلانٌ عالمٌ بأيّام العرب أي بوقائعهم . قال قتادة : يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود

---

(١) سورة المائدة ٤٨ . (٢) الآية ٦٩ . (٣) الآية ١٢٥ .

وغيرهم . والعرب تُسَمِّي العذاب أيَّاماً والنِّعم أيَّاماً كقوله تعالى : وذكِّرهم بأيَّام الله . وكلّ ما مضى لك من خير أو شرّ فهو أيَّام[1] .

في سبيل حمل كفّار مكّة على اتّباع الرّسول النَّبيّ الأمّيّ ﷺ تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة الذين طلبوا آيات مادّيّة : انظروا ماذا في السّماوات والأرض من آياتٍ لا يأتي عليها الحصر كي تنتهوا إلى أنّ هنالك معبوداً بحقٍّ واحداً فقط هو الذي بيده ملكوت كلّ شيء . وبما أنّ القوم متعنّتون على غرار الكافرين السّابقين المصرّين على عنادهم وكفرهم فإن الآية الكريمة تقرّر أنّ هؤلاء القوم الذين لم يؤمنوا وأصرّوا على عدم الإيمان لا تُغْني عنهم الآيات والنّذر ، ولا تنفعهم الحجج والبيِّنات والرّسل ، ولا تحملهم المعجزات والأنبياء على الإيمان بك والتّصديق بالكتاب الذي أوحاه الله تعالى إليك .

والآية الكريمة الثّانية تسأل في إنكار : فهل ينتظر هؤلاء الكافرون المصرّون على الكفر إلّا مثل الوقائع والنّكبات التي حلّت بالذين مضوا من قبلهم وأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر كفرعون وملئه . إنّ أولئك لم ينفعهم إيمانهم بعد فوات الأوان وكذلك كفّار مكّة لا ينفعهم إيمانهم ساعة حلول عذاب الله تعالى بهم . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يأمر الكافرين بأن ينتظروا وقائع العذاب بهم فإنّ المصطفى ﷺ والمؤمنين منتظرون ذلك .

وإذا كان الكافرون يتربّصون بالمؤمنين الدّوائر وينتظرون العذاب أن يحلّ بالمؤمنين فإنّ الآية الكريمة تبيّن بصريح اللّفظ أن الله سبحانه وتعالى سوف ينجّي رسله والذين آمنوا معهم ، وإنّ ذلك الإنجاء حقٌّ للمؤمنين وواجبٌ ألزم الله تعالى به نفسه جلّ وعلا : « حقًّا : مفعول مطلق لفعل محذوف أي حقّ ذلك حقًّا »[2] أي واجباً علينا ، لأنه أخبر ولا خُلْف في خبره[3] .

---

(١) تفسير القرطبي ٣٢٢٥ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٧٦/٦ .

(٣) تفسير القرطبي ٣٢٢٦ .

« دعوة الإسلام عالميّة منذ فجرها فعلى
كل النّاس أن يسلموا ، وعلى الدّعاة
أن يصبروا حتّى يحكم الله خير الحاكمين »
الآيات (١٠٤ ــ ١٠٩)

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للنّاس والمراد بهم هنا في المقام الأوّل كفّار مكّة ، إن كنتم في شكٍّ من ديني الذي بعثني الله تعالى به ، وهو دين التّوحيد الذي أدعوكم إليه وإفراد الله تعالى بالعبادة ، وبالتّالي لا تعبدون الله تعالى وحده لا شريك له فأنا لا أعبد الأصنام والأوثان التي تعبدون من دون الله تعالى ولكن أعبد الله تعالى الذي يتوفّاكم ثمّ يبعثكم ويحاسبكم ويجازيكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين بالله تعالى ربًّا واحداً لا إله غيره ولا معبود بحقٍّ سواه .

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

وأن أقم وجهك للدّين حنيفاً : وأن أقم نفسك على دين الإسلام . حنيفاً : مستقيماً عليه غير معوجٍّ عنه إلى يهوديّةٍ ولا نصرانيّةٍ ولا عبادة وثن[1] .

أمرت الآية الكريمة السّابقة المصطفى ﷺ أن يكون من المؤمنين . وإنّ أمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له في ذلك الأمر . وإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تقرّر على لسان المصطفى ﷺ بأنّه عليه الصّلاة والسّلام قد أوحي إليه[2] أن أقم وجهك ونفسك لدين الإسلام الذي بعثك الله تعالى به وأمرك باتّباع الحنيفيّة دين إبراهيم عليه السّلام ، مائلاً عن كلّ دينٍ سوى دين الإسلام والتّوحيد ، مستقيماً عليه غير معوجٍّ عنه إلى أيّ دينٍ آخر . وعبّر بالوجه لأنّه أشرف الأجزاء ، والمراد الجسد كلّه .

وبعد الأمر بالاستقامة على دين الإسلام والتّوحيد يكون النّهي عن الإشراك مع الله تعالى سواه . وفي النّهي عن الشّرك تأكيدٌ للأمر بالتّوحيد .

---

(١) تفسير الطبري ١٢١/١١ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٧٨/٦ .

وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

بعد أمر المصطفى ﷺ بتوحيد الله تعالى ، والمراد أمّته عليه الصّلاة والسّلام ، والنّهي عن الإشراك مع الله تعالى سواه ، يتأكّد التّوحيد والنّهي عن الشّرك في هذه الآية الكريمة .

إنّ الآية الكريمة تنهى المصطفى ﷺ ، والمراد كلّ فرد من أفراد أمّته عليه الصّلاة والسّلام ، أن يعبد من دون الله تعالى ما لا ينفعه لو عبده ولا يضرّه لو هجره ، لأنّ هذه المعبودات من دون الله تعالى لا تملك لنفسها ، فضلاً عن سواها ، نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

وتأكيداً للنّهي يأتي الخطاب بعد ذلك للمصطفى ﷺ ظاهراً ، كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بل كلّ فردٍ من أفراد الإنسانيّة حقيقةً وباطناً ، بأنّك إن دعوت غير الله تعالى وأشركت معه في العبادة سواه فإنّك إذن من الظّالمين الذين ارتكبوا أعظم الظّلم بصرف العبادة عمّن يستحقّها وهو الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد إلى من لا يستحقّها ، وقد قال تعالى[1] : ﴿ إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

تُعطي الآية الكريمة الدّليل العمليّ على قدرة الله تعالى المطلقة وعلى عجز الآلهة المعبودة من دون الله تعالى . إنّ الله سبحانه وتعالى هو الضّارّ النّافع الفعّال لما يريد الغفور الرّحيم . وإنّ الآية الكريمة تدور حول هذه النّعوت للذّات العليّة .

إنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ أوّلاً ، كلّ مؤمنٍ بل كلّ إنسانٍ آخراً قائلة : إنّك أيّها الإنسان إن يمسسك الله تعالى اللّطيف الخبير الرّءوف الرّحيم بأذى الضّرّ من مرضٍ أو فقرٍ أو خوفٍ وما إلى ذلك فلا كاشف لذلك الضّرّ إلّا هو جلّ وعلا . ويلاحظ استعمال المسّ مع الضّرّ وليس دون المسّ في لطف القضاء وراء دليلاً أكيداً على رحمة البرّ الرّحيم

---

(١) سورة لقمان ١٣ .